الرأي الحر

بقلم : يوسف عبدالله اسرية (ابو)

خطف الطائرات

بين العمل الثوري والقرصنة

ازدادت في العشرين سنة الاخيرة وبشكل ملموس عمليات خطف الطائرات واجبارها على الهبوط في اماكن يحددها المخطفون ، وبالرغم من اختلاف الدوافع والاسباب التي تدعو الى عملية الخطف فان النتيجة تكاد تكون واحدة وهي الاستيلاء على اموال الغير بالقوة وتحت التهديد .

والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كانت اول جهة في العالم العربي تعارس هذا النوع من الاستيلاء (منذ شهر تموز عام ١٩٦٨ حيث قامت باولى عمليات الخطف لطائرة العال اليونغ ٧٠٧ الاسرائيلية واجبارها على الهبوط في مطار الجزائر) .. وكان الاستيلاء الثاني على الطائرة الاميركية التابعة لشركة « تي.دبليو.اي » وارغامها على الهبوط في مطار دمشق .. وتطورت الامور بسرعة بهذا الاتجاه عندما قامت الجبهة بتنفيذ عملياتها الجريئة بالاستيلاء على اربع طائرات في يوم واحد ، احداها سويسرية والثنتين منها اميركية والرابعة بريطانية وفشلت عملية الاستيلاء الخامسة على طائرة العال الاسرائيلية حيث القى القبض على ليلى خالد في حينه وتم احتجازها في لندن عدة اسابيع واستشهد رفيقها البطل باتريك ارغوبللو .

لقد احدثت تلك العمليات الخارجية ردود فعل مختلفة في جميع انحاء العالم تفاوتت بين التاييد والتنديد واثارت موجة من الاراء المتباينة بين مؤيد بلا تحفظ .. واخر متحفظ في تاييده، بعي الدوافع لكنه يخشى النتائج ، ومندد حاقد وناقد يحاول ان يجد له راسا متميزا يستند على تبريرات يراها مقنعة له .

ومع ضرورة دراسة ردود الفعل تلك وتحليلها والاستفادة من ايجابياتها وسلبياتها على حد سواء في ترسيخ الخط الاستراتيجي للجبهة في هذا المجال يبقى في نظرنا موقف الجبهة هو الاساس المستند على خطها الاستراتيجي الواضح الذي توصلت اليه بعد رؤيتها الواضحة للامور .. رؤيتها الواضحة لمعسكر الخصم .. ورؤيتها الواضحة لقوى الثورة .. ورؤيتها الواضحة حتى لتقسيمات معسكري قوى الخصم والثورة على اساس درجات الخطورة والاهمية في كل منهما .. ذلك ايمانا بان ما يقرر النجاح فعلا هي تلك الرؤية الواضحة للامور وما يقرر الفشل هو الغيبة والارتجال .

موقفان ورايان

وما يهمنا من ردود الفعل موقفان كانا الدافعين لطرق هذا الموضوع : اولهما حديث لنا شخصي جرى مع صديق مسؤول من الصين الشعبية حول عملية الاستيلاء على الطائرة اليونانية التي قام بها مجموعة من فدائي جبهة التحال الشعبي وبعدها كان يوم الطائرات المشهود الذي نفذت فيه الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اربع عمليات استيلاء ناجحة .. لم يكن هذا الصديق الصيني شخصا يؤيد مثل هذه الاعمال ويؤكد على ضرورة التركيز على حشد القوى الجماهيرية في الداخل لتصعيد القتال ضد العدو على ارض فلسطين .

والموقف الثاني سمعته من شخص عربي مع الاسف يقول (كما قاله الكثير مثله) ان تلك الاعمال في مفهوم القانون الدولي هي « اعمال قرصنة » .. وسوف نناقش الموضوع هنا بايجاز من وجهتي نظر الثورة الفلسطينية كما نراها الجبهة الشعبية وتعمل على هداها ، والقانون الدولي العام مستدين علما وتمنطقا تلك الاراء والمفاهيم الخاطئة واستغلالها من قبل الجهات المعادية للتشكيك والتضليل والتلويح بتدخل امريكي في المنطقة وسنأتي بالحديث عن ذلك في النهاية .

لقد اوضحت الجبهةالشعبية لتحرير فلسطين، وهي احدى فصائل حركة المقاومة الاساسية والرائدة في العمليات الخارجية ، الدوافع والاسباب التي تحدوها الى سلوك هذا الطريق كوسيلة من وسائل الحرب ضد العدو وملاحقته في كل مكان . فمن الامور الاساسية لابة ثورة ناجحة هو التسلح بالرؤية الثورية الواضحة التي تحدد العدو وبالتالي تحدد طبيعة مواجهته ، وقد حددت الجبهة الشعبية في استراتيجيتها معسكر الخصم بانه ليس اسرائيل وحدها ، ولكن يضاف اليها الحركة الصهيونية والامبريالية العالمية والرجعية العربية ، فاسرائيل في حقيقتها ما هي الا الوجود الملموس للصهيونية على اراضينا المحتلة وثمرة لجهدها ، والصهيونية العالمية بطبيعتها لها علاقات متداخلة ومصالح متشابكة مع الامبريالية التي لها نفس العلاقات مع اسرائيل فهناك تلاحم عضوي بين اسرائيل والحركة الصهيونية من جهة وبينها وبين الامبريالية العالمية من جهة ثانية وهذا التلاحم يعني طائرات الفانتوم واسراب القنبلة الذرية لاسرائيل وبناء الاقمار نتيجة تدفق ملايين الدولارات والماركات على اسرائيل ، كما ان الرجعية العربية في صراع مصيري ومعارك حقيقية تخوضها الجماهير للقضاء على نفوذ الامبريالية واستغلالها لا يمكن الا ان تكون الى جانب مصالحها المتوقف بقاؤها واستمرارها على بقاء الامبريالية .

لقد قامت بريطانيا خلال انتدابها على فلسطين بتسهيل اقامة الكيان الصهيوني في فلسطين بل وقبل انتدابها اعطت وعدا للصهيونية بذلك هو وعد بلفور ونفذت وعدها عبر فترة الزمن الطويلة لانتدابها على فلسطين من خلال جملة الاجراءات التي اتخذتها بدءا بفتح باب الهجرة ومرورا بالتشريعات المختلفة الجائرة لانتزاع حقوق شعب فلسطين في ارضه وحملات التعذيب والاضطهاد العنصري الرهيبة التي مارستها ضد السكان العرب وانتهاء بتسليح عصابات الصهيونية وتمكينها من السيطرة على البلاد قبل رحيلها في ايار عام ١٩٤٨ .

وامريكا لعبت دورا رئيسيا في اواسط الاربعينات وما تزال تلعب دور الحارس الامين للصهيونية وكيانها العدواني في فلسطيننا المحتلة وامدادها باسباب القوة وكل مقومات التدمير ونتيجة هذا التواطؤ والتآمر والدعم تم تشريد ما يقارب من المليونين من السكان العرب الفلسطينيين وطردهم من بلادهم ليعيشوا مشردين في المخيمات ومعسكرات البؤس الرهيبة عرضة للقلق والجوع والمرض .

الا يصبح بعد هذا العرض السريع من حق الشعب الفلسطيني المشرد ازاء هذا التحالف في معسكر الخصم من مواجهته باستراتيجية عسكرية ثورية تكفل له ضربه في اي مكان ؟

انه لامر طبيعي – تأمل من اصدقائنا فهمه – ان يحرك شعبنا مقاتليه الى اي بلد لمواجهة امتدادات اسرائيل ومراكز قوتها ومصادر دعمها خارج فلسطيننا المحتلة وشن حرب في الخارج للرد على الحرب التي تشنها علبه عبر مؤسساتها الصهيونية المنتشرة في مختلف انحاء العالم .

يجب ان لا يغيب عن بال الاصدقاء ان ابي زعبل وبحر البقر وبيروت واربد ودمشق والمفرق وميسلون والسويس مناطق لا تدخل ضمن الاراضي المحتلة وانما خارجها ، فكيف يجوز لعدونا ممارسة الهجوم عليها وقصفها بوحشية ويراد ان يحجب علينا حق ملاحقته في لندن وبون وزوريخ وغيرها ؟

ومع انه يهمنا كسب الراي العام العالمي لكنه ليس هو الاساس في تحديد خط سير ثورتنا ووضع استراتيجيتها .. ان الراي العام العالمي الذي لم تحركه سنوات النشرد المقاربة لربع قرن وحداء الذل والبؤس التي يحاسا شعب طرد من وطنه ليعيش ذليلا على فتات وكالة الغوث سنجعله نفهم فلسنا حسب انها ابعد واشمل من احداث اختطاف الطائرات لانها ثورة تعتمد العلمية في التخطيط والتنفيذ . ولقد كانت ضربات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الخارج بمثابة الاعلام الثوري الذي هز الضمير العالمي وايقظه من سباته ليلقي نظرة على قضية شعبنا التي تناضل بشرف من اجلها وبدأ الراي العام العالمي يتساءل ؟

لماذا يموت شاب مثل عبد المحسن حسن على تلوج مطار زيوريخ ؟ ولماذا تعرض فتاة مثل اميتة دحبور نفسها للموت او الاعتقال في سجون سويسرا ؟ ولماذا يعرض ماهر المغاني ومحمود عيسى نفسيهما للموت او السجن في معتقلات اليونان ؟ ولماذا تخاطر ليلى خالد وسليم عساوي بحياتهما في عملية جريئة مثل عملية الاستيلاء على الطائرة الاميركية ؟ ولماذا يشتري شبل مثل خالد وطلعت ووائل وعادل الموت او السجن في اكثر من مدينة اوروبية ؟

نعم لقد بدأ التساؤل والتفتيش عن الحقيقة التي حجبتها اجهزة الدعاية الصهيونية فاثناء نقل جثمان الشهيد عبد المحسن حسن من سويسرا الى العراق حضر الى بغداد ثلاثة من الاجانب بحثا عن الحقيقة وساروا في موكب التشييع وكانت فرصة حوارى معهم مفيدة .. اثنان منهم من سويسرا والثالث من كندا وكلهم طلبة جامعيون في الصفوف المنتهية واحدهم شاهد عملية الهجوم على الطائرة في مطار زيوريخ وراى بام عينه كيف ان مردخاي غدر بالشهيد عبد المحسن حسن من الخلف وهو بين رجال البوليس ووصفه بالحرف الواحد بانه قاتل ، وقال احدهم((لم نكن نعرف شيئا عن فلسطينكم، تماما كمعظم الشعب السويسري ، وكان حادث الطائرة مناسبة حركت الشعب في سويسرا بحيث انقسم الى قسمين بين مؤيد للعرب ومناصر لاسرائيل . ونحن هنا آتينا المجيء بحثا عن الحقيقة » .. وتحدث الشاب الكندي وقال انه لم يكن يعرف ملابسات القضية الفلسطينية وكل ما يعرفه ان دوله اسرائيل قائمة منذ اكثر من الف سنه وان العرب يريدون رميها في البحر .. اننا لم نسمع وجهة النظر العربية وهذا ذنبكم انتم الذين حصرتم وجهات نظرنا على وجهة النظر الاسرائيلية ..

اذا كان الشباب الجامعي في اوروبا بهذا المستوى من الدراية والمعرفة – رغم التعصب العرسي والاعلام الفاشل – افلا يحق لشعبنا الالتجاء الى كل الوسائل للتعريف بقضيته ونضاله العادل ؟ ان ضربات الجبهة الشعبية في الخارج مركزة فقط على مصالح العدو والتعليمات مشددة بعدم الحاق اي اذى بمصالح وارواح المواطنين .. تلك هي التعليمات الصادرة الى الشهيد عبد المحسن حسن ورفاقه في امر التنفيذ القتالي .. ونفس التعليمات حملتها ليلى خالد في عملية الاستيلاء على الطائرة الاميركية عندما اعلنت : « لركاب الطائرة من غير الجنسية الاسرائيلية حريتهم الكاملة في السفر الى اي مكان يشاؤون .. » بهذه الروح الثورة الواعية تترجم استراتيجيتها في عملها الخارجي ضد العدوان .

ثمة نقطة هامة لا بد من الاشارة اليها في هذا المجال وهي ان الاعمال الخارجية لا تتم اطلاقا على حساب العمل داخل الارض المحتلة ولا على حساب تعبئة الجماهير في الداخل وربطها بالثورة واذا ما لاحظنا فان العمليات الخارجية لا تشكل الا نسبة عددية تكاد لا تذكر بالنسبة للثورة الفلسطينية وعملياتها القتالية في الداخل .. ان اساليب النضال ليست جامدة ومقولبة وعلى وتيرة واحدة فذلك ما يرفضه المنطق العلمي لكل قضية ظروفها وابعادها ومتطلباتها وقضيتنا الفلسطينية لها خصوصيتها الفريدة .

اما بالنسبة للمنطق القائل بان تلك الاعمال ما هي الا قرصنة وتتنافى مع احكام القانون الدولي فنود قبل الرد على ذلك ان نؤكد النظرة العلمية لواقع اسرائيل وكونها اداة عدوانية في المنطقة ومخفر عسكري متقدم للمعسكر الامبريالي العالمي تستخدمه ضد حركة الجماهير وتظلعاتها في الوطن العربي .. ووجود قسم على العدوان وطرد شعب من وطنه لمحل محله مجموعات من الشتر غير متحانسة حضارة ولغة وتاريخا تنفذا لمخططات الحركة الصهيونة العالمية المعاداة معالامبريالية ضد حربات الشعوب وامانها في الحرية والتقدم .

ان كل القذى داخل اسرائيل بشرا ومادسا يغلب عليها الطابع العسكري وقد انتت هزيمة حزران ذلك وكف تحولت طائرات العال الى اسطول عسكري لنقل الجنود والمعدات العسكرية كما وضعت سيارات النقل وغيرها من المصالح ذات الطابع المدني تحت تصرف القيادة العسكرية وفي خدمتها حتى الدستور الاسرائيلي يعطي المؤسسة العسكرية الاسرائيلية الفاشية سلطات واسعة جدا بحيث تكون تلك السلطات فوق النظام كله الى درجة ان ميزانية الدولة تخضع لموافقة المؤسسة العسكرية قبل المصادقة عليها .. تلك اشارة سريعة نراها مفيدة لتاكيد الطابع العسكري العدواني للوجود الاسرائيلي .

والان نعود للرد على ذلك المنطق القائل بان اعمال الخطف هي « قرصنة » فنقول ان ذلك لا يعكس بالضرورة الوضع القانوني لهذا التصرف الذي هو من صلب البرنامج الثوري للجبهة الشعبية .

فالقرصنة واعمال الخطف بخضع كل متهمها لاحكام مختلفة ففي حين تخضع اعمال القرصنة لاحكام معاهدة جنيف للبحار العامة المعقودة في ١٩٥٨/٤/٢٧ تخضع اعمال الخطف للطائرات لنظام معاهدة طوكيو للجرائم والاعمال الاخرى المرتكبة على ظهر الطائرات المعقودة سنة ١٩٦٣ .

ما هو راي القانون الدولي في ذلك ؟

خطف الطائرات .. قانونا ..

لقد نصت الفقرة (١) من المادة (١١) من معاهدة طوكيو على ما يلي :

« اذا قام شخص على ظهر الطائرة بالتدخل او الاستيلاء او باي نوع من السيطرة بالتدخل والاستيلاء بصورة غير قانونية باستعمال القوة او التهديد باستعمال القوة اثناء تحليق الطائرة او اذا كان مثل هذا العمل على وشك الوقوع فان الدول المتعاقدة ستقوم باتخاذ جميع الاجراءات المناسبة لاستعادة قيادة الطائرة لربانها الشرعي او لحفظ قيادته للطائرة » .

يفهم من النص الوارد اعلاه انه لم يتم تحديد الاستيلاء الحقيقي على الطائرة فقط حتى يعتبر من جرائم الخطف وانما قيام الشخص بالتدخل او اي عمل من شانه السيطرة على الطائرة بشكل غير قانوني ايضا .

اذا وحتى يعتبر الفعل اختطاف لا بد من توافر الاركان التالية :

١ – وجود الفاعل على متن الطائرة .

٢ – توفر الفعل غير القانوني وتفسير ذلك يعود لقانون الدولة التي يركب الفعل ضمن حدودها .

٣ – استعمال القوة او التهديد باستعمالها .

القرصنة

اما القرصنة فقد عرفتها المادة (١٥) من معاهدة جنيف بانها تتكون من اي من الاعمال التالية :

١ – اعمال العنف او اعمال الحجز القانوني او السلب التي يقوم بارتكابها ركاب السفن او المسافرون على سفينة خاصة او طائرة خاصة لاغراض خاصة وموجهة :

ا – ضد سفينة اخرى او طائرة على البحار العامة او ضد اشخاص او ممتلكات على ظهر تلك السفينة او الطائرة .

ب – ضد سفينة او طائرة او اشخاص او ممتلكات في مكان يقع خارج نطاق الاختصاص الدولي لاية دولة .

٢ – اي عمل من اعمال المشاركة الاختيارية في تشغيل سفينة ما او طائرة ما عالما بان تلك السفينة او الطائرة قد اكتسبت نوب القرصنة .

٣ – اي من اعمال التحريض او التسهيل عمدا لاي من الاعمال التي ورد وصفها في الفقرة (١) او (٢) من هذه المادة .

من التصوص اعلاه يتبين ان الفرق الاساسي بين القرصنة والخطف يكمن في الغرض او الدافع لارتكاب الفعل فقد حددت الفقرة (١) من المادة (١٥) من معاهدة جنيف المبرم عنهما انفا بان الاغراض الخاصة و المكاسب الشخصية دون ان يكون هناك هدف سياسي هي المميزة لاعمال القرصنة وتحدد بها، وهنا يكمن الفرق الجوهري بين الاختطاف والقرصنة .. فاعمال الخطف غالبا ما تكون دوافعها سياسية في حين جريمة القرصنة يكون الدافع فيها شخصيا ومن هنا فان عمليات خطف الطائرات حسب مفهوم القانون الدولي لا تدخل ضمن اعمال القرصنة .

وكما اسلفنا فقد اثر الكثير من غبار التمس حول العمليات الاخيرة لاختطاف مجموعة الطائرات المعروفة ومحاولة التشكك في جدواها والتقليل بانها احدثت ردود فعل سيئة لدى الجماهير العربية ومحاولات التخويف الرخيصة بالتلويح بتدخل اميركي في المنطقة ، ولقد ردت الجبهة على تلك المحاولات بعنف وأوضحت بكل صراحة وجراة استراتيجيتها فيما يتعلق بضرباتها في الخارج واصدرت بيانات متعددة وكراس خاص في هذا الموضوع طرحته على الجماهير العربية التي تلقفته بارتياح وتاييد كبيرين تعزز معهما توجه الجبهة الواعي لتلك الضربات الموجهة لمعسكر الخصم ومصالحه .

لقد استقبلت الجماهير الشعبة هنا في العراق عمليات مقاتلي الجبهة الاخيرة وسيطرتها على ذلك الاسطول الضخم من الطائرات بفرحة لا توصف تلقت الجبهة على اثرها سيلا من التاييد الكبير كما اشادت الصحف المحلية بتلك العمليات وانطلقت مختلف وسائل الاعلام بدعم وتأييد خطوات الجبهة وعملياتها الجريئة .

اما التعلل بالخوف من الثور الاميركي وقواه الهائلة لا وجود له في قاموس حركات التحرر الوطنية الثائرة في طريق حرب التحرير الشعبة الطويلة الامد والقادرة بها على مجابهة الدول الكثيرة لوجيه الهائل لمعسكر الخصم ، ومن هنا فان التخوف من التحركات المريبة لقوى معسكر الاعداء وربطها بعمليات خطف الطائرات والاستيلاء عليها غير وارد على الاطلاق ، فاستراتيجيه العدو واضحة لا تحكمها عملية خطف الطائرات وبالتالي فان محاولة ربط ذلك بما دار ويدور في المنطقة محاولة غير سليمة وفاقد عن الحقائق والموضوعية لطبيعة العدو ومخططاته ، فتلك نظرة تقف العمل الفلسطيني قدرته على تحديد طبيعة المواجهة وتفرغه من محتواه الثوري .

ما يهمنا بعد هذا كله هو التاكيد على انه مهما كانت الضغوط ومصادرها .. ومهما كانت المؤامرات ودرجة خطورتها فان شعبنا لن يخشاها بل صمم ان لا ينهزم امامها بعد ان عرف طريقه نحو الحرية وحمل السلاح والفكر على هذا الطريق الشاق الطويل بعزيمة جبارة وارادة لا تقهر هي ارادة الجماهير الكادحة صاحبة المصلحة الحقيقية في الصمود والثورة والقادرة على السير في طريق الكفاح حتى النهاية .